ليس كاتب هذه القصة غريبا عنى . قرأت له فى مجلة « الأديب » مقالات وقصصا . وعندما قرأت مقالاته حسبت أنه تجاوز دور الشباب الغض أو على الأقل أتم دراسته الجامعية .

لكننى حينما التقيت به فى القاهرة تبينت فيه شابا حديث السن لعله فى السابعة عشرة من العمر . واذا كان هناك علاقة بين السن والتفكير فان هناك أيضا تفاوتا بينهما فقد يبدو التفكير بالنسبة لسن معينة أشبه بالرداء الواسع نتيجة الموهبة والدرس وأخذ النفس بالمشقة والجهد والعزوف ـ الى حد ما ـ عن اللهو الشهير فى هذه المرحلة من العمر .

وربما عن لى أن أسأل نفسى : هل يستطيع هذا الشاب أن يكتب شعرا ؟!

أنا أعرف أن الشعر فى البلاد العربية باستثناء مصر أسبق الفنون فهو قبل فن القصة وله منشئون ومحبون . واذا كنت قد عرفت فخرى قعوار كاتب نقد وكاتب قصة فانى أرجح أن له بعضا من القصائد على النهج العمودى أو النهج الجديد .. هذا لا يهم . لكن الذى أريد أن أخلص اليه هو أن صاحب هذا القلم يعيش فى احساس وجدانى حى . يطلب التعبير الأدبى ويسعى اليه وينشد الصورة التى تلائم موقفه النفسى .

وهذه المرحلة يمر بها معظم الشبان . وتتراوح جودة أعمالهم فى كل نوع أدبى بين الارتفاع والتوسط والانخفاض . ثم .. قد يسأل أحدهم نفسه أو غيره من الناس عن أجود ماكتب وعما ينبغى أن يتفرغ له .

غير أن الجواب ليس عند الناس بل عند الكاتب نفسه . انه سيهتدى الى وطنه الأدبى بعد أن يحوم حول كل الأوطان . سيهتدى بعد فترة ما من الوقت .. فى يده خريطة « الوجدان الانسانى » وسيفتش جاهدا حتى يحدد

وكاتب هذه القصة ـ مرة أخرى ـ لايزال فى هذا الدور . ربما اشتهر فى المستقبل ناقدا وربما اشتهر قصاصا . وعلى هذا الأساس فانى أبين قيمة عمله الذى تقدمه مجلة القصة فى عدد الطلائع فليس هو بمستطيع أن يعتبر قصة « الرفاق » أحسن ماكتب . ولست أنا فى موقف مخالف لموقفه

ففى الأردن تتجسم مأساة العدوان على أرضنا السليبة . على فلسطين . تتجسم المأساه فى المعسكرات القريبة . وفى المدينة التى شطرت شطرين وفى عدة آلاف من عرب فلسطين لا تنسيهم الاقامة ولا العمل ولا كسب العيش مرارة ماحدث .

فكاتب هذه القصة اذن من شهود المأساة . وهو اذ يقدم هذا العمل فهو مثل رجل يحمل وثيقة . رأى السهر والدموع والتشرد والترقب لليوم المنتظر . والامل فى أكواخ الطين وفى أحضان الجبال . والبحث عن الوقود فى الفيافى والاطفال الذين يولدون على الرغم من كل ما حدث ...

وأنا حين هممت بقراءة هذه القصة كان همى أن ألتقط الغريب فيها. وليس معنى الغريب هنا هو النادر الحدوث . لكن معناه الطابع (البلدى) ذلك اللون الذى يميز قطعة من الوطن العربى عن قطعة أخرى . ذلك الذى يعادل اللهجة فى النطق ولو أن الحروف كلها عربية .

وقد بدا لاول وهلة فى شىء غير (الحادثة) لان الحادثة التى بنى القصاص عليها عمله تكاد تكون مألوفة فى الادب المصرى عندنا . ذلك المقاول الذى يسخر عمال البناء أو التراحيل لاجل مكاسبه . ذو الساعة الذهبية والكرش العظيمة .

لكن أشياء أخرى غير الحادثة واللفة جعلتنى أشم رائحة وطن القصة هى أنها أشبه ما تكون بقصيدة ... تترك فى النفس انطباعا غامضا محوره الهموم . وهؤلاء الرفاق الاربعة الذين لم أر فيهم ولو واحدا متمردا أو ثائرا شحنوا نفسى بالاسى .

وددت بعد أن قرأت القصة أن لو استطعت لهم شيئا . وربما يتبادر الى الذهن فى هذه اللحظة الكلمة المألوفة . كلمة (السلبية) لكننى لا أستطيع أن أطالب بأن يكون جميع الابطال هائجين .

« بعد دقائق كنا نجلس فى ضوء قنديل شحيح واللحن القديم الحزين يخرج من أعماق صديقى فتحى ونحن نستمع اليه فى صمت وخشوع ... حنجرته سكبت بالحزن ... »

وقد بدأ المؤلف قصته بما ختمها به بعد أن أرانا كيف يحول الظلم الطويل الشخص الى هيكل كأن مهمته فى الحياة أن يستمع الى الاحكام فقط ولا يد له فى شىء . وقد تجلى ذلك فى منظر هؤلاء اللاجئين وهم يستمعون الى الاسماء (المرفوضة) من فم المقاول ذى اليد البرصاء ... يد برصاء

وطعامهم فيها ... رمز بديع ... وعندما فرغوا من معرفة قدرهم هاموا عائدين ليروا غيرهم فى طريقهم اليه ...

هذه هى رائحة (البلد) التى فاحت فى قصة فخرى قعوار . وكان ممكنا جدا أن يلعب الكاتب بعواطفنا فى الموقف الذى أشرت اليه لكنه كان يسارع نحو نهاية القصة .

وأعود مرة أخرى الى أبطال هذه القصة الحزانى المسلوبين . هل ساءنى اننى لم أجد فيهم متمردا ؟!

انهم فى هدوئهم المغلوب يعيشون على الامل . وربما أحس الكاتب أن الشخصيات الفذة أو الشخصيات (النمطية) فى أدب النكبة أصبحت أكثر من المطلوب فتلمس سبيلا آخر سبيل التأثير بالنموذج الحى . بالانسان الذى يعيش هناك . فهو يوحى الى القارىء العربى بما يجب أن يعمل كما تهبط فكرة فوارة على الرأس فى جو هادىء . هدوء يوحى بالثورة . وضائعون يضحكون وهم فى طريقهم الى المخيم ويتكلمون عن الطعام والنساء . أحاديث كأنها بصقة معلقة تريد أن تنطلق الى وجه الظلم ... كابتسامة المهزوم التى تؤرق الظالم . لغة خفية تعارف عليها الانسان ومن خلال هدوء هذه النماذج تنبعث ثورة الناس .

أود أن أقرأ لكاتب هذه القصة قصصا اخرى تكون فى قوة ما قرأته له من مقالات باذن الله .

محمد عبد الحليم عبد الله

الرفاق

اللحن الحزين ينبعث رقيقا رتيبا من أعماق صديقى فتحى ، يترنم بلحن قديم كئيب ، وهو يغمر جسده بحزام قطن عتيق ، ويجلس على حافة السرير ، صوت صديقى يرتفع ويهبط ،وصديقى الآخر « عطية » يجلس على صفيحة سمن فارغة ، وأنا أجلس الى جانب فتحى ، كنا نستمع بصمت وخشوع تامين . حنجرة صديقى سكتت بالحزن ، وهى تقطر ألما وجمالا . لم أكن أتصور أن فى الحزن حلاوة وفى الألم روعة ، لم أكن اتصور هذا مطلقا . اجل .. ان ساعة حزن واحدة تساوى عشرات الدنانير من يد « البكرى » البرصاء المنتفخة ، كل يوم يعطى الواحد منا عشرين قرشا ، بعد اثنتى عشرة ساعة من العمل فى خلط الاسمنت مع فتات الحجارة ، ورفعه بالصفائح الى سطوح البنايات ، ورفع الحجارة الثقيلة الى جوار « المعلم عايش» المقرفص أبدا على جدران العمارات !! عشرون قرشا ماقيمتها ، ونحن الثلاثة مدمنون على التدخين ، فنشترى كل يوم علبة سجاير « لولو » بأربعة قروش ونصف ، ولسوء حظنا ايضا فنحن من « المدمنين » على تناول الطعام ، فنبتاع فى بعض الأيام شيئا من البندورة والفجل

والخبز ، وفى البعض الآخر منها بصلا أخضر واوقية زيتون وتمرا بقرشين ، وتكون مصادفةغريبة اذا اشترينا نصف كيلو برتقال أو تفاح كل اسبوعين ... شىء يذبحنى ويمزقنى عندما آكل شيئا من العنب ، أو تفاحة صفراء شاحبة ، أو برتقالة شمطاء ذابلة ، اذ أذكر كيف كان والدى يشحنه بسيارة النقل الكبيرة الى ميناء يافا ليصدر ، بعد أن تعاف نفوسنا أكله ، واذكر كيف كنا نلعب كرة القدم ـ وأنا لم أتجاوز التسعة أعوام ـ بتفاحة أو برتقالة ، وكلما تتهرأ واحدة نأتى بغيرها .. شىء يفلق ويدعو للجنون و...أف.. ان خواطرى تشط بى بعيدا .. بعيدا الى ما وراء ستة عشر عاما ، صور قديمة مهزوزة لتلك الأيام ماتزال تعبر خاطرى، فتجعل نفسى تزداد تهرؤا وتقيعا ، وصور حديثة للبكرى تلح على ذهنى ، تجعل عقلى يكفر بكل شىء ، بالحياة وبالقدر وبالناس جميعا .. صدقنى اننى غير ملام عندما أقول هذا، فقد ذهبنا صبيحة هذا اليوم للعمل كالعادة ، واشتغلنا بجلد وضراوة ـ بحكم العمل ـ انهكتنا، حتى العاشرة والنصف . واذا بسيارة البكرى السوداء ، الكبيرة تقف الى جوارنا ، وهبط منها بكرشه المتدلف واوداجه المنتفخة ، ووقف ازاءنا ونحن نعمل ونرمقه باطراف عيوننا ، فاخرج ساعته المدورة الكبيرة من صدريته ، وألقى عليها نظرة سريعة ثم اعادها الى مكانها ، وعاد فمد يده الى جيب سترته الداخلية ، واخرج حزمة من الأوراق ، واخذ يفتش بينها الى أن اهتدى الى ورقة معينة ، فامسكها بيمناه البرصاء ،واعاد بقية الاوراق الى جيبه ، وقال بصوته الهادىء المنفر :

ـ اسمعوا ..

وقف الجميع عن العمل ، وكفوا عن الحركة ، فصمتت المعاول والرفوش ، وقعدت الصفائح والقفف ، وتنفس «مسطرين»المعلم عاليا الصعداء،وتذوبت العيون بين شفتى الرجل ..ورقة الممسك بها .

قال :

ـ ستنتهى خدمات بعضكم هذا اليوم ..

أحسسنا بالضباب يتكثف ، ويتكثف أمام أعيننا ، وبقيود صلبة فظيعة تحيط بصدورنا .

وأكمل :

ـ لا لشىء .. الا لأن مصلحة العمل تقتضى هذا ..

بقى الضباب والقيود تكتم أنفاسنا . أضاف :

ـ والآن..هذه اسماء المرفوضين ..

وضعنا أيدينا على قلوبنا ، فى حين قال الرجل بتمهل وبطء :

ـ حمدى ..

فضرب هذا القفة المستكينة عند قدميه ، ووقف محاذاتنا .

ـ يوسف

واتجه بنفور وتقزز واضحين الى جانب زميله حمدى .

ـ فتحى ..

وشعرت بالضيق لرفض صديقى ، لكننى قلت فى نفسى : «بسيطة .. مادام الرفض بعيدا عنى » .

ـ عطية ..

وسار صديقى الآخرالى جانب زملائه؛ وهنا نطق باسمى ، فأحسست بالفضاء يضيق من حولى ، والارض تميد من تحت قدمى ، لكننى نفضت هذه الاحاسيس .. ؛ واتجهت بوجوم أخرس الى أصدقائى،ففركت يدى ببعضهما البعض، وأخرجت سيجارة من جيب قميصى ورحت أدخن . وبكل هدوء ووقار عفنين ، أعطى كلا منا عشرة قروش ، وقال :

ـ الله يعطيكم العافية ..

وحاول احد الزملاء أن يعترض،فأجاب الرجل بكل ثقة :

ـ مصلحة العمل فوق كل اعتبار ..

ورحنا نقطع الدرب الترابى القصير بأرجل تعبة كليلة ، والصمت ما يزال واقفا بيننا كالعملاق . ولما وصلنا الشارع العام ، وقف باص « المحطة » ، ونزل منه خمسة شباب بألبسة مهلهلة ، والتفت أحدهم الينا سائلا :

ـ أتعرفون ورشة البكرى ؟

فأجابهم عطية بتهكم مرير ، مشيرا الى المكان :

ـ أظن انها هناك .. عند السيارة السوداء .. وقهقه عطية بصوت مجلجل

ـ بعد أن ذهب الشبان ـ قائلا :

ـ لتحيا مصلحة العمل !!

ـ وأضاف قائلا لفتحى :

ـ فرط الزواج القريب يا أبو الفتوح .. هه .. !

فأجابه فتحى غامزا :

ـ ليكن ما يكون . وانت .. سخيف كيف سنعطى نوال بائعة الترمس قرشا كل يوم ؟

فتدخلت وقلت :

ـ ستشعر معه ولا شك ..

وهنا قطعه عطية بجد مفتعل :

ـ أتعرفون ؟ .. ان نوال من الطف ما رأيت فى حياتى من فتيات آ

فعلق زميلنا يوسف ، وهو ممسك بذراع حمدى :

ـ يبدو أنك عريق فى معاشرة النساء ..

ـ فقهقه ـ مرة أخرى ـ بجلجلة ، وقال :

ـ فعلا .. هو هذا

وصحت فجأة ، وقال بتنهد :

ـ ايه .. أيام ..

وهنا جاء الباص العائد الى « المخيم »، فركبنا به . لم تكن المسافة لتستغرق زمنا طويلا ، ففى الحادية عشرة والربع كنا فى « أكواخنا » ! .. وقد أخت أمى على أن تعرف سببا لمجيئى المبكر،فرفضت الاجابة ، وصحت بها ، فسكتت ، ويبدو أنها فهمت كل شىء . ورحت فى نومة عميقة طويلة ، لم أصح منها الا عند ما جاء عطية يدعونى لقضاء السهرة معه عند فتحى .

بعد دقائق ، كنا نجلس فى ضوء قنديل شحيح .. ، واللحن القديم الحزين يخرج من أعماق صديقى فتحى ، ونحن نستمع اليه بصمت وخشوع تامين . حنجرته سكبت بالحزن ، وهى تقطر الما وجمالا . ولما توقف عن الغناء ليمسح دمعتين فى عينيه، نظر كل واحد منا فى عيون صديقيه نظرة طويلة متفائلة ، وكأننا نقول : لابد للحن الحزين أن ينتهى .

فخرى قعوار
الاردن